كلمة العدد

التحولات الرقمية وأثرها على العلوم الإنسانية

كلمة رئيس التحرير أ.د. محمد علي هارب جبران

قبل عقدين من الزمن، كان الباحث في العلوم الإنسانية يقضي شهوراً، بل سنوات، بين أروقة المكتبات، يقلب صفحات المخطوطات النادرة، ويدون بخط يده بطاقات المراجع، وينتظر أسابيع لتصل إليه نسخة من دورية علمية عبر البريد البريدي، أما اليوم، وبفضل التحولات الرقمية، فقد تغير المشهد تماماً: فالمخطوطات النادرة أصبحت مصورة ومتاحة عبر الإنترنت، وقواعد البيانات الببليوغرافية تبحث لنا في ثوانٍ عما كنا نبحث عنه أياماً، والمجلات العلمية قد تصل إلى بريدنا الإلكتروني لحظة نشرها.

هذه التحولات ليست تغييرا في "الأدوات" التي نستخدمها، إنه تغيير جوهري في طريقة إنتاج المعرفة الإنسانية، ونشرها، وتقييمها، واستهلاكها، وهي تحمل في طياتها فرصاً هائلة، ومخاطر جسيمة، ومسؤوليات جديدة تقع على عاتق الباحثين، والمجلات العلمية، والجامعات، وصناع السياسات الثقافية والعلمية.

في هذه العجالة، لا أسعى إلى تعداد الأدوات الرقمية المتاحة للباحث في العلوم الإنسانية، فهذا أمر يمكن العثور عليه في أي دليل تقني، بل أسعى إلى ما يحدث للعلوم الإنسانية نفسها – لموضوعها، ومناهجها، وغاياتها – في ظل التحولات الرقمية.

ويمكن إيجاز القول في العناصر الآتية:

أولاً: فضاء جديد للمعرفة الإنسانية

ثمة أمر جوهري وهو أن الإنترنت لم يضف فقط "سرعة" و"سهولة" إلى الممارسات البحثية القديمة، بل خلق فضاء معرفياً جديداً مختلفاً، هذا الفضاء يتميز بثلاث خصائص رئيسة هي:

اللامركزية: في الماضي، كانت مصادر المعرفة المركزية هي المؤسسات (الجامعات، المكتبات الوطنية، دور النشر الكبرى، المجلات العلمية المرموقة)، أما اليوم، فإن أي فرد يمكنه نشر أي شيء عبر الإنترنت، وقد يصبح هذا "الشيء" مرجعاً لمئات أو آلاف من

البشر، هذه اللامركزية فيها مشاركة معرفية منضبطة مرحب بها، وفي الوقت نفسه فيها فوضى معرفية ومعلومات مضللة قد تحمل كل علامات المصداقية الزائفة.

الترابط: لم تعد المعرفة تقدم في صورة "كتاب مستقل" أو "مقال منفرد"، بل في صورة شبكة من النصوص التشعبية التي تشير إلى بعضها بعضاً، وقد ترتبط بمقاطع الفيديو، والتسجيلات الصوتية، وقواعد البيانات، ومنصات النقاش الحي، هذا الترابط يفتح آفاقاً جديدة لفهم الظواهر المركبة، لكنه أيضاً يحمل خطر "التشتت والتسطيح" فالقارئ قد ينتقل من رابط إلى رابط دون أن يعود إلى النص الأصلي.

السرعة والتغير: المعرفة الرقمية ليست جامدة كما كانت المعرفة المطبوعة، فالنص الذي يُنشر اليوم على موقع الويب يمكن تعديله غداً، أو حذفه بعد أسبوع، والمحتوى الذي يصبح متداولاً على مواقع التواصل الاجتماعي في الصباح قد يتحول إلى "معلومة شبه مقدسة" بحلول المساء، هذه السرعة تجعل من الصعب، وأحياناً المستحيل، "تثبيت" المعرفة وتوثيقها بالطريقة التي اعتدنا عليها في الثقافة الورقية.

هذه الخصائص الثلاث تفرض تحديات غير مسبوقة على الباحث التقليدي في العلوم الإنسانية الذي تدرب على العمل ضمن مصادر مركزية، ونصوص مستقلة، ومعرفة بطيئة، لكنها أيضاً تقدم فرصاً جديدة لمن يعرف كيف يوظفها لصالحه.

ثانيًا: المنهجيات الرقمية في العلوم الإنسانية

من أبرز مظاهر التحول الرقمي بروز ما يُعرف بـ"العلوم الإنسانية الرقمية "، وهذا المجال لا يعني "استخدام الحاسوب في البحث الإنساني" فهو أمر قديم قدم الحواسيب نفسها، بل يعني إعادة التفكير في أسئلة وأساليب العلوم الإنسانية في ضوء الأدوات الرقمية.

وعلى سبيل المثال: تحليل النصوص على نطاق واسع، في المنهج التقليدي، كان الباحث يقرأ بعناية عدداً محدوداً من النصوص (رواية، ديوان شعر، مجموعة وثائق تاريخية) ويستخلص منها استنتاجات معمقة، أما اليوم، وباستخدام تقنيات التنقيب في النصوص يمكن للباحث تحليل آلاف بل ملايين النصوص في وقت قصير، بحثاً عن أنماط إحصائية، أو تطور مصطلحات، أو شبكات مفاهيمية تتكرر عبر تاريخ طويل.

هذا النوع من التحليل لا يستغني عن القراءة المتأنية، بل يضيف إليها بُعداً جديداً، فالباحث يستخدم التحليل الكمي للتعرف على الظواهر التي تستحق القراءة المتأنية، ليصل إلى الدقة المعرفية والشمول الإحصائي، فالتصور البياني للبيانات الإحصائية يساعد على رؤية علاقات مكانية وزمانية في البيانات التاريخية والجغرافية لم تكن مرئية من قبل .

ثالثاً: أخلاقيات البحث الرقمي

من أبرز القضايا الأخلاقية التي يثيرها التحول الرقمي في العلوم الإنسانية:

الخصوصية وسرية البيانات: تعتمد كثير من البحوث الإنسانية اليوم على بيانات بشرية متاحة عبر الإنترنت: منشورات على مواقع التواصل الاجتماعي، تغريدات، تعليقات في المنتديات، مراجعات لمنتجات وخدمات، ولكن هل من الأخلاق استخدام هذه البيانات في البحث دون موافقة أصحابها؟ الجواب يختلف حسب السياق، فبعض هذه البيانات منشور للعموم صراحة، وبعضها الآخر منشور ضمن إعدادات خصوصية معقدة، والباحث مطالب بفهم هذه التفاصيل واحترامها.

التحيز الخوارزمي: الأدوات الرقمية ليست محايدة، فخوارزميات البحث، ومحركات الترجمة الآلية، وأنظمة التوصية، كلها تحمل في طياتها تحيزات المصممين، أو تحيزات البيانات التي دُرِّبت عليها، والباحث الذي يستخدم أداة رقمية من غير أن يفهم حدودها وتحيزاتها، قد يصل إلى استنتاجات مضللة.

الفجوة الرقمية: ليست كل المجتمعات ممثلة بالتساوي في الفضاء الرقمي، فالمجتمعات الفقيرة، والمناطق النائية، والفئات المهمشة، غالباً ما يكون حضورها الرقمي أضعف، أو تكون بياناتها أقل تنظيماً وإتاحة، والباحث الذي يعتمد فقط على المصادر الرقمية المتاحة يخاطر بإعادة إنتاج التهميش، وتقديم صورة منقوصة عن الواقع الإنساني.

هذه القضايا الأخلاقية ليست عقبات تعوق البحث، بل هي جزء لا يتجزأ من منهجيته، والباحث الجيد في العلوم الإنسانية في العصر الرقمي هو من يتعامل مع هذه التحديات بوعي وشفافية، ويجعلها جزءاً من تحليله النقدي.

رابعاً: التحولات الرقمية كموضوع للبحث

التحولات الرقمية هي أيضاً موضوع حيوي للبحث في العلوم الإنسانية بحد ذاتها، ولكن السؤال هو كيف؟

كيف تؤثر وسائل التواصل الاجتماعي على تشكل الهوية الفردية والجماعية؟

ما تأثير انتشار الأخبار الزائفة والمعلومات المضللة على الخطاب العام الحر؟

كيف يُعيد الذكاء الاصطناعي التوليدي تعريف مفهوم "الأصالة" و"الملكية الفكرية" و"الإبداع"؟

ما التحولات التي طرأت على اللغة العربية نفسها في ظل الكتابة على لوحات المفاتيح، واستخدام الرموز التعبيرية، والترجمة الآلية؟

كيف نُدرّس العلوم الإنسانية في عصر يحصل فيه الطلاب على معلومات فورية لكنهم يفتقرون إلى القدرة على تحليلها وتقييمها؟

هذه أسئلة لا يمكن للإجابة عليها أن تكون تقنية بحتة، لأنها تتعلق بالمعنى، والقيمة، والغاية، والتحولات الرقمية تمنح العلوم الإنسانية فرصة استثنائية لإثبات أهميتها، ليس بوصفها رفاها أكاديميا، بل بوصفها حاجة مجتمعية ملحة.

خامساً: دور مجلة جامعة المهرة في عصر التحولات الرقمية

مجلة جامعة المهرة للعلوم الإنسانية تعيش هذا الواقع الرقمي وفقا للمتاح لها حاليا، ويمكن إيجاز ذلك في الآتي:

1- النشر الإلكتروني والوصول المفتوح: أصبحت المجلة حاضرة رقمياً ويمكن الوصول إليها بيسر وسهولة، ودخلت ضمن المجلات التي تسمح بالبحث داخل النصوص، وارتبطت بقواعد بيانات عالمية، كونها مرتبطة بمعرفات رقمية دائمة (DOIs) لكل مقال، وتقدم إحصائيات دقيقة حول التحميلات والاستشهادات، وتطبيق سياسات الوصول.

2- استقبال البحوث الرقمية ترحب المجلة بالبحوث العلمية الرصينة والبحوث التي تتعامل مع التحولات الرقمية بوصفها موضوعا للدراسة، سواء من حيث تأثيرها على الإنسان والمجتمع، أو من حيث توظيف المنهجيات الرقمية في البحث في العلوم الإنسانية.

3- الأمانة العلمية في العصر الرقمي: مع سهولة النسخ واللصق، وتوفر أدوات الترجمة الآلية، وانتشار خدمات الكتابة بالنيابة تصبح مسؤولية المجلات أكبر وبخاصة في كشف الانتحال العلمي وسوء الممارسة البحثية، ولذا لابد من استخدام برامج كشف الانتحال والاقتباس غير المصرح به، وتطبيق أعلى معايير الأمانة العلمية.

4- الحفاظ على الهوية في العصر الرقمي: بينما نؤكد على أهمية استخدام الأدوات والمصادر الرقمية العالمية، لا ننسى أن نؤكد أكثر على توثيق المعرفة الإنسانية، وتشجيع البحوث التي تتناول قضايانا الخاصة بلغتنا ومرجعياتنا الثقافية، فالرقمنة أداة لخدمة المعرفة، وليست بديلاً عنها.

ختامًا: لطالما تكرر، تاريخياً، أن كل ثورة تقنية كبرى صاحبتها تخوفات بنهاية الإنسان: فقالوا عن السكك الحديدية أنها ستفسد الأخلاق، وقالوا عن التلغراف سيدمر التواصل العميق، وقالوا عن التلفاز سيحول العقول إلى إسفنج، وقالوا عن الإنترنت سيقتل القراءة، كل هذه التخوفات أثبتت أن فيها مبالغة، ومن هذا نستنتج أن التحولات الرقمية لا تقتل العلوم الإنسانية، بل تمنحها أدوات جديدة لمعرفة أكثر عمقاً لم تكن ممكنة من قبل، وهذه الأدوات، كأي أدوات، يمكن توظيفها بحكمة أو بطيش، فالوعي المنهجي، والنزاهة الأخلاقية، والإخلاص هذه القيم هي ما يميز الباحث في العلوم الإنسانية في أي عصر، رقمياً كان أم ورقياً.

وأخير توجه أسرة تحرير دعوة للشجاعة البحثية: شجاعة تعلم أدوات جديدة، وشجاعة نقدها وفهم حدودها، وشجاعة استخدامها في خدمة قضايانا المحلية والعربية والإنسانية. وهي ترحب بنتاجاتكم البحثية لنشرها عبر صفحاتها، مثمنين جهود كل من شاركنا الوصول إلى هذا العدد.